شعر الخمر والغناء

وصف الشعراء في هذه العهود الخمرة على غرار أسلافهم واهتموا بوصف مجالسها وما تضمّه من غناء وعزف، وما يحيط بها من إطار جميل من الطبيعة وما يرافقها من متعة ولهو.

فأمّا الخمرة فأحسن من قال فيها خلال هذا العهد شاعران متعاصران صديقان أحدهما منجك، والثاني ابن النقيب، وبين الرجلين أوجه التقاء كثيرة. فأمّا منجك وهو أسبق ولادة وأطول عمراً فقد أضاع ما ورثه عن أبيه في اللهو، ولما عضَّتْ به الحاجة لم يجد حوله أحداً يساعده أو يسعفه من إخوان الصفاء السابقين فسافر إلى بلاد الروم (الترك) يبغي الفرج فآب خائباً وانزوى في بيته.

وأمّا صديقه ومعاصره ابن النقيب فقد مات شاباً ولم يُتح له أن يقدّم كل عطائه الفني شعراً ونثراً.

قــم هاتهــا فانتهــاب العــيش مغتَــنِمٌ مــن كــفّ معتــدِلٍ في خــيرِ إبــانّ

حيث الرياض اكتستْ من سـندسٍ حُلَـلاً وتُوّجـــت بيواقيـــت وعقيـــان

ففي هذين البيتين يستسقي الخمر في مربع الرياض السندسية ومن يد ساق جميل معتدل القوام ولكنه يشعرنا في الوقت ذاته أنه ينتهب لذّاته ويغتنمها لأنه ليس واثقاً من دوامها.

وقد ينسى كل شيء إلا الانصراف إلى لذاته والإشادة بها، ومن ذلك قوله يصف مجلس خمر دام حتى الصباح وتجاوب فيه عزف الناي مع تغريد الطير:

وروضةِ أُنسٍ بات فيها ابن أيكةٍ يغرّدُ والنايُ الرّخيم يشنّفُ

فظلَّت عَرانينُ الأباريق بالطّلا إلى أن بَدت كافورة الصبح تَرعُف

وجميل جداً تشبيهه بداية ظهور الصبح بكافورة تنقط فوق الكون قطرات كما يرعف الدم من الأنف، ولكن هذا التشبيه جميل شكلاً سيّء إيحاءً، لأنه يشعر بالضعف والمرض، وقد يدعو إلى التشاؤم والنظر إلى الدنيا، بمنظار أسود، ولكن الشاعر حين نظم الأبيات كان في حقيقة نفسه متشائماً وقد لا يكتفي منجك بوصف الخمر، بل يصف الساقي ويشبه خدّيه بالورد والخمر فيقول:

هبَّ يَجلو الراح في كاس اللُّجَيْن فاتر الأَلحاظ خالي العارِضَيْن

وَتَحسَّى وَسَقانا قَهوةً مُزِجَتْ مِن ماء وَرد الوَجنَتين

والمعاني في هذين البيتين مألوفة، بل تكاد تكون مبتذلة، ولكنها جميلة لأنها دائمة متجددة على الزمن، وقد لا يملّ الإنسان من تكرارها، ولعلَّ صلاح البيتين للغناء، ووصف الساقي بأنه تحسّى الخمر قبل أن يسقيها الشاعر وصحبه قد عدّلا من ألفة المعاني وابتذالها، وجعلاها قريبة من القلب.

وقد عُني منجك إلى جانب الخمر بوصف متعته وملذاته وما يتصل بها، قال يُجب بربوة دمشق ويشبّه غناء أطيارها بالعزف على الدف والجَنْك:

أربوتَنا حيَّتْك عنّا السحائبُ فأنتِ لوجه الأرض عَيْنٌ وحاجبُ

فأسْوَدُك الغرِيّدُ بالدّفّ مولع تبدّتْ لنا بالجَنْك منه عجائب

ونرى في البيتين قوة شعور منجك بجمال المنظورات وجمال المسموعات معاً وشدة تعلقه بجمال الربوة في دمشق كغيره من الدمشقيين ومن يزورون دمشق من خارجها وهو ينسبها إلى نفسها وأهل بلده فيقول ((أربوتنا)) ويجعلها عين الأرض وحاجبها أي أحسن شيء فيها، ثم يشبه تغريد بلابلها وسائر أطيارها بنغمات الدف والجنك، وهما آلتان موسيقيتان معروفتان ويوّري بالجنك عن مكان جميل معروف فيها.

ونجد بين هذا الشاعر وبين ابن النقيب نُقَطَ تشابه وتلاقٍ كثيرةً فقد وصف ابن النقيب الخمر والكأس والساقي والنديم وكانت دواعيه للخمر كثيرة: ((الطبيعة الدمشقية والحانات والأديرة والجمال والفتنة والصّبا والشباب والربيع والفراغ والغنى والمكانة الاجتماعية)).

وله قصائد خاصة بالخمر ومجالسها، وهي مطبوعة بطابع ذاتي ويجمع فيها بين وصف الطبيعة والخمر وبين الغزل.

وكان لابن النقيب مجالسُ جدٍّ إلى جانب مجالس اللهو وقد وصف مجلساً له عند بعض أصحابه الأدباء فقال:

نحـــــن في روضـــــةٍ مـــــن الآداب	**سُــــقيتْ بـــــالفُهوم لا بالســـحابِ**
ضــــمَّنا مُجــــتلَى عـــرائسِ أفكـــا	**ر جلّتْهـــا قـــرائح الألبـــاب**
وألـــذُّ القـــريض مـــا كـــان غَضّـــاً	**مســـتجدّاً قريـــب عهـــد الشـــباب**
فاســـقِ منـــه شرب المســـامع كأســـاً	**لبنـــي العصـــر زائـــدَ الإطـــراب**
أنـــا في حانـــة القـــريض فـــما لي	**لا أرى دفـــتراً شـــهيَّ الشـــراب**

وقد أظهرنا ابن النقيب في وصف هذا المجاس على الجانب الآخر الحلو الجادّ من حياته وشبّه فيه خمر الآداب بخمر الأعناب وأبدى رأيه في الشعر الجيّد وهو عنده ابن القريحة الذكية المبتكرة، الغضّ الجديد الذي لم يُخلِقه القِدَم والابتذال، الملائم الذوق عصره وأحواله.

ونراه يصف مجلساً أدبياً آخر بالشَّرف المطلّ على مرج دمشق الأخضر فيقول:

يـــا حبـــذا منـــزلٌ ومرتَبـــعُ طـــاب لنـــا اليـــومَ مجتمَـــعُ
في معشـــرٍ لم تـــزل مـــآثرهم تُـــتلى بـــأوج العـــلا وتُســـتَمع
فهـــم لطِيـــب الجـــدود قـــد نزَعـــوا وفي ريـــاض العلـــوم قـــد رتعـــوا

وفي هذه الأبيات الثلاثة يبين لنا ابن النقيب رأيه في الأصدقاء والندامى المثاليين في مجالس الجدّ، فهم الذين يجمعون بين كرم النسب، وسعة الثقافة ولا يكتفون بأحدهما.

وقد حمله ولعه بالغناء على نظم قصيدة طويلة يؤرخ فيها للغناء والمغنِّين منذ بدء العصر الأموي حتى آخر العصر العباسي، وتكاد تكون ملحمة فن الغناء في الآدب العربي منها قوله:

كلّـــما جـــدّد الشـــجيّ ادّكـــارَهْ أزعـــج الشـــوقُ قلبَـــه واســـتطارَهْ
ليـــت شـــعري أيـــن اســـتقلْ عـــن اللّهْـــ ـــوِ بنـــوه وكيـــف أخْلَـــوْا مَـــزاره
بعـــدما راوحـــتهم صـــفوة العيَـــ ـــش ونـــالوا طـــوع الهـــوى أوطـــاره

ويبدو لنا أن الشاعر قد نظم هذه القصيدة ليبدي إعجابه بفن الغناء وبالمغنيَّن المشهورين لأن فن الغناء قد أخذ عليه لبّه في مجالس لهوه وفي غيرها فأحبّ أن يؤرخ لهذا الفن تأريخاً يبتعد به عن جفاف العلم ويمزجه بحلاوة الآدب وطراوة العاطفة وغضارة الخيال وجمال المعاني وحسن التعبير، وقدّم لنا بذلك وثيقة قيّمة في فن الغناء العربي.

... انتهت المحاضرة ...